الفصل الرابع

أزمه تربية الطفل

تمهيد:

لا شك أن أطفال اليوم أكثر صعوبة وأشد عناداً من أطفال الأمس، حيث يميل أطفال اليوم إلى المشاكسة والعنف وكثرة الأسئلة، ورفض القيم والمبادئ التى تشربناها وتمثلناها، ولا نملك فى نهاية الأمر سوى مشاعر الحزن والأسى والأسف على أيام زمان يوم أن كنا أطفالاً.

الطفل بين الماضى والحاضر:

إن الدهشة التى تعترينا عندما ننظر إلى أطفال اليوم فى سلوكهم ومواقفهم وطيبعة استاجابتهم التى لم نعرفها فى أيام طفولتنا ليست بالأمر الجديد فهى مسألة ترجع جذورها العميقة إلى قدم التاريخ الإنسانى، فكل جيل من الأجيال المتلاحقة قد عرف هذه التجربة التى تتعلق بملاحظة التباين بين الأجيال وبين الآباء والأبناء.

لقدكان لحكماء العرب حكمة تقول: (ربوا أولادكم على غير أخلاقكم فإنهم ولدوا لعصر غير عصركم ولزمان غير زمانكم).

ولقد برزت هذه المسألة فى عصر النهضة فى البلدان الأوربية كإشكالية تربوية ويتجلى ذلك فى النقد الذى يوجهه الأسبانى (ج ل فيفى) أحد كبار المفكرين التربويين فى عصر النهضة إلى تربية الفتيات وسلوكهن فى عصر واللواتى كن يتجملن بالدهون والسماحيق والعطور لجذب إعجاب الرجال وكان يرى فى ذلك تناقضاً مع التعاليم الدينية المسيحية ومع القيم التربوية لعصر طفولته وشبابه.

ولم يكن لهذه الدهشة التى تعترى كل جيل من أجيال الراشدين إزاء صغارهم، أن تطرح نفسها قديماً، كما تطرح الآن فى عصرنا- عصر التغيرات التكنولوجية السريعة كإشكالية تربوية فى غاية الخطورة.

وبالتالى فإن درجة الأهمية التى تطرح فيها هذه المسأل مرهونة بوتيرة التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية ومدى حدتها.

ففى العهود القديمة لم يكن التباين بين الأجيال يطرح إشكالية تربوية، ويرجع ذلك إلى طبيعة التغيرات الاجتماعية البطيئة والمتكاسلة.

أما فى العصور الحديثة تؤدى التغيرات التكنولوجية السريعة المتلاحقة إلى تغيرات متماثلة فى بنية التصورات والمفاهيم وطرق التكيف، وهذا بدوره ينعكس على المسألة التربوية ويطرح ضرورة البحث عن مناهج جديدة قادرة على احتواء هذه التغيرات وتمكين الأطفال من أشكال جديدة للتكيف مع طبيعة العصر المتغير.

لأن التغير يجرى بوتائر سريعة جداً وينعكس ذلك على أنماط السلوك والأفكار عن الناس صغارهم وكبارهم، وهذا يعنى أن هذه التغيرات تحدث فى الظروف وفى الناس قبل أن تنعكس على النظام التربوى.

فتأثير التليفزيون فى نمط التفكير والسلوك عند الأطفال يتم بشكل مباشر دون توسط العملية التربوية، والنظام التربوى الذى لم يستطع حتى هذه اللحظة احتواء هذه التجربة التكنولوجية الجديدة ولذلك وصف البعض هذا الجيل أى جيل القرن الحادى والعشرين (بأنه جيل التليفزيون والدش والإنترنت).

تعظيم الماضى:

إن تمجيد الماضى فى شخص أجياله السابقة يعود لا شعورياً إلى تمجيد أنفسنا بوصفنا مخلوقات ملائكية فى مراحل طفولتنا، وذلك أمر طبيعى جداً عندما ندرك أن مرحلة الطفولة التى عشناها بشجونها وأفراحها ودعاباتها أو اللاشعورية إلى تقديس طفولته وتمجيدها.

كذلك فى الأجيال الحاضرة أطفال مرحون، وأطفال مشاكسون كسالى، وأطفال نشطون وأذكياء، وهناك الأطفال الذين يميلون إلى الشدة والعنف.

وإذا كان ذلك هو واقع الحال، فإن الميل إلى تقديس الماضى وإعلاء شأنه يمكن أن يفسر كردود فعل تجاه الصعوبات التى نواجهها فى تربية أطفالنا وفى توجيههم، ونحن عندما نحقق وحين لا نستطيع أن ندرك أسباب أخفاقنا الحقيقى فى تربية أطفالنا، ننزع أن ندرك أسباب أخفاقنا الحقيقى فى تربية أطفالنا، ننزع إلى النكوص آملين فى أن نجد فيه تفسيراً وهمياً.

وفى كل حال لا يبقى أمامنا سوى أن نضع الأجيال الحاضرة فى قفص الاتهام وأن نحكم عليها بالقصور والعدم لنبرر لأنفسنا ما اعتراها من قصور وفشل فى القدرة على فهم الظروف التى تحيط بأطفال اليوم وناشئته ومن ضعف فى إيجاد البدائل التربوية الممكنة التى تتيح لنا أن نأخذ زمام المبادرة فى توجيه أطفالنا إلى بر الأمان.

صراع الأجيال:

لا شك أن التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية الكبرى المتلاحقة قد أدت إلى تكوين نظام جديد من المفاهيم والتصورات والأفكار والقيم التى تختلف مع القيم والمفاهيم والتصورات القديمة.

وتكمن الأزمة التربوية فى وجود أنظمة ثقافية متعددة على وجه الخصوص، وتتجسد قيم الثقافية التقليدية أكثر فأكثر كلما توجها صعوداً فى سلم الأجيال القديمة التى تتمثل بمجتمع الآباء والراشدين، بينما تميل قيم الثقافة المعاصرة إلى الحضور بدرجة أكبر كلما توجهنا تدريجياً نحو الأجيال الصغيرة.

ومن هنا تظهرالفجوة أو التباين الثقافى بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة فى المفاهيم والتصورات التى يحملها الأطفال فى كل مجتمع.

ومن الأمور المهمة التى تشكل إطاراً موضوعياً لما نشهده من تباين بين الأجيال ما يكمن فى وحدة المصادر الثقافية وتنوعها، ففى المجتمع التقليدى (مجتمع الآباء والأجداد) كان المجتمع كان متجانساً

فى الثقافة والعادات والقيم والتقاليد والاتجاهات، أما فى المجتمع الحديث نجد العكس تماماً.

ويعود ذلك كله إلى التنوع والغنى فى الأنماط الثقافية وفى المثيرات التربوية، وإلى تعاقب الموجات الجديدة للتغيرات التكولوجية التى تحمل معها أنماط جديدة من أساليب العمل والتفكير والقيم الثقافية، ويحدث لنا أن نجد عند أطفالنا بعضاً من الاتجاهات التى لم يسبق لنا معرفتها ومن هنا تظهر الفجوة بين الجيل القديم والجيل الحديث.

الأزمة التربوية:

يجدر بنا عند تحليل الأزمة التربوية أن نأخذ فى اعتبارنا ثلاثة محاور أساسية:

أولاً:المربون: وهذا يعنى جملة القائمين على العملية التربوية من آباء وأمهات ومعلمين.

ثانياً: المتربون: ويمثلون مجتمع الأطفال والشباب وكل هؤلاء الذين يحتاجون إلى المساعدة من أجل نموهم وتكيفهم.

ثالثا: الوسط: ونعنى به العمليات التى تتم بين المربى والمتربى كالوسط العائلى والوسط المدرسى، فالوسط هو الإطار الذى يضم كل ما يمكن مشاهدته وكل ما يجرى تحت بصر الطفل فى الشارع فى المدرسة فى المنزل.

فالعملية التربوية إذن هى تفاعل كل هذه العناصر المختلفة، فالمربون يعملون على مساعدة المتربين فى الوصول إلى حالة التكيف الى تقتضيها الوسط الاجتماعى، وهم تبنون لتحقيق ذلك أنماطاً من الفعاليات التربوية والثقافية التى تعلموها فى إطار حياتهم ووسطهم الاجتماعى .

إن الطرق التربوية التى يعتمد عليها المربون فى عملهم غالباً ما تنتمى إلى الإطر المرجعية الثقافية التقليدية لعهد طفولتهم وصباهم، وهى فى أكثر الأحيان تتسم بكونها طرقاً وأساليب تقليدية لا تنسجم مع طبيعة العصر وطبيعة التغيرات الجارية وهنا تكمن أزمة التربية.

ولكن السؤال الأول: لماذا نربى وما الهدف من التربية؟

ببساطة نحن نربى من أجل أن يتكيف أطفالنا مع وسطهم الاجتماعى وأن يصبحوا قادرين على اكتساب الهوية الاجتماعية فى ميادين العمل والإنتاج، وأن نحقق لهم السعادة فى حياتهم الآتية والمستقبلية.

والسؤال الثانى: ما الذى نريد نقله إلى أطفالنا من خلال العملية التربوية؟

ما نريد نقله إلى أطفالنا هو الثقافة السائدة فى المجتمع الذى نعيش فيه ولكن ما هى وسائلنا فى نقل الثقافة وفى تربية الأجيال؟ فى الواقع إن جميع المربين يسعون إلى تحقيق السعادة للأطفال، ولكن

يختلفون فى تحديد نوع الثقافة التى يريدون نقلها إلى الناشئ ويختلفون فى تحديد الطرق والأساليب المناسبة.

وهنا تكمن الأزمه التربوية.

ولكى تكون التربية من أجل أطفالنا وليست من أجلنا نحن ينبغى أن نؤكد على أهمية هذه النقاط التالية:

❖ يجب أن ندرك أن العصر الذى يعيش فيه أطفالنا يختلف عن العصر الذى أحاط بطفولتنا على مستوى القيم والمفاهيم والتصورات.

❖ يجب علينا أن نعى أن الطرائق التربوية التقليدية لم تعد صالحة ومشروعة فى تربية أطفال اليوم، وعلينا أن نعرف الجديد والمستجد فى المناهج التربوية الحديثة والمتطورة التى تنسجم مع طبيعة العصر وروح الحياة المتغيرة والمتجددة.

❖ يجب علينا أن نعى تأثير المثيرات التربوية الجديدة والتى تتعلق على الأرجح بوسائل الإعلام من راديو وتليفزيون وصحف ومجلات وفى قدرة هذه الوسائل على تشكيل القيم والاتجاهات التى تتباين مع ما تعلمناه.

❖ يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن مظاهر التباين والاختلاف بين قيمنا واتجاهاتنا وهذه التى يحملها أطفالنا هى نتاج طبيعى لجملة التغيرات الجارية عبر الزمن ولجملة المثيرات الجديدة فى عصر التكنولوجيا الحديثة.

❖ إن الإقـرار بجهلنـا لمـا يجـرى حولنـا يمثـل منطلقـاً تربويـاً يتصـف بالموضـوعية وأن سـعينا الـدائم للبحـث عـن الأسـاليب الحقيقيـة لسـلوك أطفالنا من شأنه أن يمنحنا القدرة على تحقيق النجاح فى تربيتهم وفى تحقيق نموهم وكمالهم.

❖ إن مبادئ الحرية والتسامح والعقلانية والتفهم والوعى والديمقراطية قد أصبحت مبادئ العصر ومبادئ كل عمل تربوى خلاق يتجه نحو تفجير الطاقات وصقل المواهب وتحقيق النمو السليم عند الأطفال. فالأطفال اليوم يطالبون بالعدالة والمساواة والحجة وهم لا يستطيعون قبول الأشياء على علتها بل يسيرون على مبدأ عقلانيتها وعدالتها.

❖ وعلى أية حال يمكن أن نقول إن التربية ليست للتكيف مع ما هو قائم فحسب، بل يجب أن تكون تربية متغيرة قادرة على احتواء الجديد وتمثله دون الوقوع فى الأزمة التربوية التى نعانى منها اليوم. فالمفاهيم والتصورات والقيم التى اعتنقناها فى الطفولة تقع فى إطار المطلق والغائية والشمولية وهى بوصفها كذلك قادتنا إلى نوع من الجمود والتقوقع حول الذات فشعرنا بالغربة والاغتراب عن روح العصر الذى نعيش فيه.